عبدالله عبدالقهار

قصصي من جمهورية أوزبكستان

عرض وتلخيص : خيري حماد

في اوزبكستان ، احدى الجمهوريات السوفياتية الاسيوية ، حيث يقيم مسلمو روسيا ، أدب حديث ، يتميز بطابعه الشرقي الذي يغلب عليه الخيال ، ممزوجا بلمحات من الفكر الواقعي الاشتراكي ، الذي ولدته الثورة . ومن هذا الزيج من الخيال الابداعي ، والفكر الواقعي ، ظهر الطابع الرائع للأدب الاسيوي السوفياتي الذي يمثله قصاصنا الذي نتحدث عنه في هذا المقال ، عبد الله « قهار » ، أو على الأصح عبد القهار ، الذي نال جائزة الدولة ، في قصته المشهورة « العصفور الصغير » ، واحتل مكانه مرموقة بين الأدباء السوفيات .

وفي لغة الاوزبك كلمة خاصة هي «كوشماشي» ، وتعني الأفاق أو الجوال ، الذي لابيت له يحل فيه ولامقام . وقد لحقت هذه الصفة التي تحمل المهانة والزراية ، بسعيد القهار ، الحداد المتجول ، الذي ينتقل من قرية الى قرية في وادي فرغانة ، بحثا عن العمل والقوت . وكان ولده عبدالله ، الاديب الذي نتحدث عنه هنا ، يحس بالألم ، كلما طرقت هذه الكلمة المقيتة مسامعه .

ولد عبد الله ، وهو لايعرف له بيتا . ولم تعلق بذهنه من أيام طفولته اية ذكريات جميلة ، من طراز تلك التي تعلق عادة بأذهان الاطفال ، وتعيش معهم سني حياتهم ، يجترونها ، كلما طافت بهم في شيخوختهم رؤى الصبا وأحلام الشباب . وكل مايذكره من تلك السنوات التي لايعرف بالتحقيق بدايتها ، أن أخاه الصغير مات بين ذراعي أمه ، التي لم يعش من أبنائها الأربعة عشر الذين أنجبتهم الا أديبنا عبد الله . وهو لاينسى ذلك اليوم الذي صحا فيه من نومه ، على صوت أمه وهي مجهشة بالبكاء بعد أن ضربها أبوه بكتف ثقيل على أم رأسها ، كما لايزال يذكر عبراته وهي تنهل في ليالي الأعياد ، وهو يرى أقرانه يلبسون الجديد ، بينما حرم هو من كل شيء .

كانت متعته الوحيدة ، أن يعين أباه في عمله ، فينفخ له في كوره ، بينما تحيل يدا أبيه الماهرتان قطع الحديد الى فؤوس وأدوات زراعية . كما كان يحس بالسعادة في ليالي الشتاء الباردة ، وقد التف بدثاره ، وهو يستمع الى مايقرؤ أبوه على أمه من قصص البطولات وأخبار العشق والغرام في كتاب قديم مهلهل ، تزينه الصور التي لم يفهم قط ما تعنيه .

ولما كانت حياته تنقضي في تجوال دائم ، فقد حرم من متعة الصداقة ، ولهذا فقد أسلم نفسه الى العزلة ، والى شيء من الذهول ، حتى ليخيل لمن يراه ، أنه من الصم البكم . وقد أنمت هذه الساعات الطوال من الوحدة خياله . فعاش مع أوهامه وخيالاته ، يرددها أحيانا في أبيات من الشعر ، تنطلق عفويا على لسانه .

وقرر والده بعدان بلغ العاشرة من عمره ، أن يلحقه بالمدرسة . وكانت المدرسة من تلك الكتاتيب الدينية التي يقرأ فيها القرآن ويحفظه ، والتي وصفها القصصي الأوزبكي المشهور صدر الدين عيني في رواياته . وسرعان ما انتقل من مدرسته هذه . الى مدرسة أخرى ، أحسن نظاما ، وأوفر حظا في العلم ، حيث تتلمذ على يدي محمد جان كاري ، الاستاذ الضليع في آداب الشرق ، والذي كان له الفضل الاكبر في تنمية مواهب أديبنا الذي نتحدث عنه .

ووقعت الثورة في عام ١٩١٧ ، واجتاحت عصابات اللصوص القرية التي كان يدرس فيها ، واضطر الى الانقطاع عن الدراسة ، لاسيما وقد حلت بالمنطقة مجاعة كبيرة . ولكنه مالبث أن عاود الدرس في عام ١٩١٩ ، حيث التحق بمدرسة داخلية من المدارس التي أنشأتها الثورة في بلدة خوقند ، لينتقل منها الى دار المعلمين حيث بدأ يكتب للمرة الاولى في صحيفة المدرسة ، وينشر فيها بعض القصائد التي جازت اعجاب زملائه وأساتذته .

وانضم الى منظمة الشباب «الكومسومول» في عام ١٩٢٤ ، وأصبح عضوا في لجنتها المحلية في خوقند . وشرع بنشر قصائده وكانت احداها في رثاء لينين . وسرعان ماضمته صحيفة «جمهورية أوزبكستان» الى زمرة محرريها . وواصل دراسته في جامعة طشقند ، فنال شهادتها ثم التحق بمعهد اللغات والآداب ، حيث حصل على شهادة الدراسات العليا .

وخاض غمار الكفاح العنيف ضد القوى المعادية للثورة من الاقطاعيين والبورجوازيين . وكان النقد الادبي في تلك السنوات ، نزعة أدبية تغلب على أدباء العصر ، لاظهار عيوب النظام الذي كانوا يعيشون فيه ، وتصوير مافي الحياة القديمة من قبح وبشاعة ، حلت محلهما الاتجاهات الثورية الجديدة . وكان الكتاب على اختلاف ميولهم ومشاربهم يدلون بدلائهم في هذا الكفاح الناقد الذي يتسم بالسخرية والرغبة في ازالة الانقاض القديمة ، ليحل محلها البناء الجديد .

لكن النقد الساخر ، كان لكاتبنا أكثر من مجرد سلاح في العمل الادبي ، أو حلية يزين بها أدبه . انه المجال ، الذي عكس مواهبه الادبية في مستهل طلوعها واشراقها . ومازال الادب الاوزبكي المعاصر ، يسجل له صورته ، ككاتب قصة قصيرة وناقد ساخر ، وروائي بعيد كتابه «الكوميديا» . وراح ينقل في هذه الفترة الى لغة الاوزبكية ، قصتي « المفتش العام ، و الارواح الميتة لجوجول ، وقصص « الشاويش بريشيبييف ، و السمك ، و المجرم ، و موت كاتب الحكومة ، و الحرباء» وغيرها لتشيخوف ، كما ترجم قصة «جاميلي» لجوركي .

وافاد عبد الله من ترجماته هذه فائدة كبرى ، اذ أن دراسته العميقة للمؤلفات الكلاسيكية ، جعلته يتخير الالفاظ التى يستعملها ، ويسعى التعابير التى يلقطها منها ، ويحاكى اسلوبها ، ويتعمق فى فهم حوارها ، وحبكتها القصصية . ولاريب فى أنه كان موفقا كل التوفيق فى ترجماته ، وفى اختياره للكتب التى يترجمها والتى يقف كتاب « الحرب والسلام » لتولستوى و « الطوفان الحديدى » لسيرافيموفيتش و « ليوبوف ياروفايا » لترينيوف فى مقدمتها .

لكن موهبة عبد الله الأولى كانت فى القصة القصيرة اذ اعتبر من أكبر كتابها فى الأدب السوفياتى الحديث ، وتعتبر قصصه من أهم عوامل التطور فى أدب أوزبستان فقد صور فى أروعها ، وكلها من نتاج ثلاثينات هذا القرن الماضى بشقائه ومآسيه ولكنه لم يهمل القصة الطويلة على أى حال ، بل وضع فى هذه الفترة قصته المشهورة « السراب » التى تناول فيها موضوعا عصريا .

وقد عالج فى هذه القصة موضوع «القومية» ، وهى ظاهرة من الظواهر العميقة الجذور فى حياة الجمهوريات الآسيوية السوفياتية . وبطلها شاب أوزبكى ، انتقل من القرية الى المدينة ليتلقى العلم فيها ، وليبنى لنفسه مكانا فى حياتها . وهذا الشاب واسمه «سيدى» ، ضعيف الارادة واهى الشخصية ، وقد صوره كاتبنا بأنه «يفتقر الى القدرة على تكوين اى رأى لنفسه ، وانما يعتمد فى حقائقه على أقوال من حوله » . وسرعان ماندفع تحت تأثير شاب آخر يدعى احسان ، كان من أعز أصدقائه ، ويتميز بالصدق والاخلاص والحماسة . اذ نشأ من أسرة عاملة . وكان تواقا الى اكتساب المعرفة ، حالما بأن يصبح من مشاهير الاطباء ، وراح بطلنا يقلد صديقه ، فانتسب الى الجامعة . ولكن احسان مالبث أن مضى الى موسكو ليلتحق بجامعتها . ووجد «سيدى» نفسه بين مجموعة جديدة من الاصدقاء ، توهم فيهم الرفعة والتهذيب . وأحب فتاة تنتمى الى أسرة غنية ، كانت تزامله فى الجامعة واخذا يدرسان معا . وكان عليه كعضو فى منظمة الشبيبة أن يساعد عاملا شابا من عمال المناجم فى دراسته . ولكنه وجد أن مساعدة الفتاة الجميلة الغنية أكثر استهواء لنفسه من مساعدة هذا الشاب الذى اسودت يداه من عمله فى المنجم .

وتسير القصة على هذا النحو العادى المألوف ، فتتزوج الفتاة التى يهواها كما هو المتوقع من شاب غنى خطبها بعد أن تعرف الى أخيها . ولكن سيدى وقد استهوته « متع الحياة » يتزوج فتاة عادية ، هى ابنة معلم مدرسة تحوم حوله الشبهات . وقد وصفه الكاتب وصفا ساخرا فقال . . « وكان هذا المعلم يشبه البطة فى خصائصها . فالبطة كما يعرف كل انسان تتميز بثلاث خصائص ، فهى تطير فى الهواء وتسير على الارض ، وتعوم فى الماء . وكان هذا المعلم أستاذا فى مدرسته ، أما فى القرية فهو من كبار الملاك ، وفى بيته حيث لاتصله العيون ، فهو تاجر مستغل » .

وكان سيدى ، قد تعرف فى بيت حبيبته السابقة على جماعة من الشبان الاغرار الفاسدين ، الذين ينتمون الى مختلف القوميات ، والذين كانوا يحاولون تكييف أنفسهم للثورة بمحاكاة النسل ، مستغلين الخطب الثورية التى يلقونها

لاشباع انتهازيتهم ، ولجني الارباح من التجارات المشوهة التي يمارسونها ، ولتحقيق بعض المكائد السياسية الرامية الى اغتصاب الحكم .

هذه الصور المشوهة ، هي التي حاول الكاتب ان يرسمها بريشته البارعة . وقد نقلها من الأجواء التي عاشها في الصحافة اليوميه والادبيه وحلقات الكتاب والادباء والطلاب ، ورمز الشبان من أدعياء القوميه ، الذين يجتمعون في بيوت الانتهازيين ، ويصدون بشاكهم المدح من امثال سيدى ، ليحاربوا بايديهم واقلامهم الأهداف الحقيقيه للثورة عن طريق خداع الجماهير .

ولقد كشفت رواية «السراب» عن موهبة قهار النقدية الساحرة ، فهى تضم عددا من الصور والمناظر التى تتميز بها أروع الكوميديات الساخرة . وكثيرا ماتتحول سخريته الرقيقة الناعمة فجأة الى سخرية لاذعة ، لتشرق بشيء من الغضب والقسوة من شخصية سيدى وامثاله . فقلمه البارع يظهر لنا صور هؤلاء الشبان باساليبهم الناعمة المخنثة ، وطرقهم المهذبة الرائقة ، وملابسهم الانيقة ، وميلهم الى الحياة الوادعة من خمر وميسر مما يجعلهم أقرب الى «البكوات» من الاقطاعيين القدامى .

ولعل أروع ماكتبه قهار روايته «العصفور الصغير» التى نشرت فى عام ١٩٥٧ لما فيها من تعبير وصقل وتصوير . ففى ربيع عام ١٩٥٧ ، قام الكاتب مع مجموعة من ادباء اوزبكستان ، برحلةطويلة جالوا فيها أرجاء فرغانه ، وزاروا عددامن المزارع الجماعية ، والتقوا بعدد كبير من مزارعى القطن . وكانت هذه الروايه الانعكاس الذى خلفته هذه الجوله فى نفسه وخياله .

وتعتبر الرواية ، قصة غزلية ذات طابع خاص ، يجعلها اقرب الى الدراما الاصيلة . وقد عكس فيها بمنتهى الدقة والبراعة ، اشكال الحوار الذى يدور بين فلاحى اوزبكستان منذ أقدم عصور التاريخ . ولاريب فى ان الحوار بين بطلى القصة ، كالاندايوف رئيس المزرعة الجماعيه والفتاة الشابه « سعيدة » التى بعثت بها اللجنة المركزية للحزب لتساعده فى اعماله ، صورة ناطقة معبرة عن حياة الريف فى آسيا الوسطى .

وتظهر فى هذا الحوار ايضا ، الفكرة الخالدة فى عالم الادب منذ أقدم عصوره ، وهى فكرة التساوى بين الرجل والمرأة فى الذكاء والاحساس والارادة والقدرة على الاقناع . وعندما يقرأ المرء هذا الحوار ، يجد نفسه مسوقا بالرغم منه ، الى تذكر حوار شكسبير فى روايته « ترويض الناشز » ، أو حوار موليير فى بعض مسرحياته او بوكاشيو فى قصصه « ديكاميرون » ، لكن الفرق بين حوار قهار ، وحوار أولئك ، انهم كانوا يحصرونه فى مواضيع الحب ، بينما نجد بطلة قهار تنافس بطله فى الحديث عن العمل والشئون العامة وقيادة الناس .

والبطل اكبر سنا من البطلة ، واكثر تجربة ، فهو شخصية بارزة فى مجتمعه اشتهر امره وذاع صيته لا فى مزرعته فحسب بل وفى انحاء المنطقة كلها ، حيث عرف عنه الدأب فى العمل ، والرغبة فى السيطرة . اما البطلة « سعيدة » ، فهى فى

العشرين من عمرها – وهى عضو فى سكرتارية الشبيبة وفى لجنة الحزب الاقليمية ، ذات ثقافة واسعة ، ولكنها الاحلام كغيرها من الفتيات فى سنها ، ولا تعرف العمل فى المزارع الجماعية . ويشعر كالاندادروف ان الحزب قد اهانه بتعيين هذه الفتاة المرة مساعدة له . اما «سعيدة» ، فتتضارب فى نفسها العواطف المختلفة ، والافكار المتباينة فهى احيانا خائفة من كالاندادروف ، واحيانا اخرى تريد أن تعيد تنظيم المزرعة . وهى راغبة فى أن تؤدى عملها اداء صحيحا حتى لاترديها امين الحزب ، بينما تتظاهر من الحين والآخر بمحصول الاطفال .

وموضوع القصة من النوع الدرامى . فالحزب هو الذى قذف بالفتاة على راس كالاندادروف ، الذى ألف السلطة المطلقة فى مملكته الصغيرة ، والذى تعود على النظر الى المراة كشىء اقل قيمة من الرجل . ومن هنا كان لابد للصراع من أن يقع ، وينشأ عن حركة هذا الصراع فى مراحله المختلفة موضوع القصة ، التى لابد وأن تنتهى بالنصر للبطل او للبطلة .

ويبدو من السرد أن الكاتب كان أكثر ميلا للبطلة منه للبطل فى صراعهما ، ولهذا فهو يحاول ان يحمل عواطف القارىء معه فى هذا الاتجاه ايضا . فهو يبدأ الحديث عنها باسمها المجرد ، ثم لايلبث أن يسميها «سعيدتنا» ، ليعود بعدها ، فيسميها «سعيدتنا المسكينة» معربا بذلك عن عطفه البالغ عليها . وهو لهذا يلقبها «بالعصفور الصغير» الذى يصارع رجلا ضخما مغرورا كالبطل . وينتهى من قصته طبعا ، بتصوير انتصار العصفور على المارد ، انتصارا يطيح به ويدمره . ولكنه يمتنع على أى حال من ذكر ذلك صراحة ، لان البطل ، ليس من الاشخاص السلبيين الذين يجب تدميرهم على هذا النحو القاسى .

فكالاندادروف ، مزارع مجرب ، ذو مواهب لايمكن نكرانها . يتميز بقوة الشخصية والرغبة فى السيطرة وان افتقر الى الثقافة . وهو فى جميع تصرفاته اقرب مايكون الى السيد الاقطاعى القديم الذى يتحلق حوله المداهنون والمنافقون . ولكنه مع ذلك يؤدى عملا كبيرا ونافعا . ويتقن اداءه . وهو منظم ممتاز ، ولكنه تواق الى الشهرة وان كان بعيدا عن الرغبة فى الكسب المادى الشخصى . وهو لايحارب «سعيدة» ، لانه يخشاها – على مكانته فى المزرعة ، وانما بدافع مايحس به الذكر من كبرياء امام الأنثى . ونتيجة اقتناعه . بانه كعضو فى الحزب ، لايحتاج الى من يرشده فى اعمال التنظيم – ولما كان هذا المرشد يحمل صورة الفتاة التى لاتعرف شيئا عن زراعة القطن رغم ثقافتها ، ولما كانت هذه الفتاة قد شرعت فى التدخل فى عمله ، فقد احس بكرامته تصاب وتهان ، فثار لهذه الكرامة الجريحة .

اما سعيدة ففتاة حساسة ابوفة ، معتزة بنفسها ، وهى تدرك أن كالاندادروف يحاول الاها وابعادها عن المزرعة . ويكاد ينجح فى خطته ، فتستشيط غيظا وسهمر الدموع من مآقيها ، وتبعث برسالة الى سكرتير الحزب فى المنطقة ، ترجو نقلها من مركزها . ولكن هذا كان يعرف طبيعتها وشخصيتها قبل أن يبعث بها الى المزرعة ، فساعدها بكل كياسة وذكاء على أن تسحب طلبها شكواها .

واحست الفتاة بالخجل من تصرفها ، فعرضت على الماء والدفاع عن كرامة الحرب ، وراحت تعيد الى المزرعة تنظيم فرع الحرب فيها بكل هدوء وأناة ، بعد أن كان كالانداروف قد جعل من هذا الفرع باستبداده شيئا تافها لا قيمة له .

ويفكر كالاندوروف بتوجيه الضربة القاتلة اليها ، لاسيما وهو يعرف أن معلوماتها في الشئون الزراعية شبه معدومة ، ويطلب اليها أن ترافقه في جولة في الحقول ، بعد أن يحملها على امتطاء ظهر جواد وكانت هذه التجربة شاقة عليها ، اذ كانت تجهل ركوب الجياد . لكن هذه الجولة كانت نافعة ، اذ اكتشف كل من الغريمين في صاحبه ميزات كان يجهلها ولكنها جديرة باحترامه . وكان كل منهما يشد العون من جماعته في المزرعة ، ولكن سرعان ماتبينا أن من في المزرعة متفقون في كلمتهم ، لا على تأييد هذا أو ذاك ، بل على تأييد القضية التي يعملون من أجلها وبالرغم من النزعات الاستبدادية التي كانت مسيطرة عليه ، الا أن كالاندوروف قد أبدى منتهى الحماسة في انجاح القطن . وكانت حماسته حافزا لسعدة على مشاركته النضال لخير الجميع .

وقد لايكون ثمة حاجة الى التفصيل في تحليل كل مارافق هذه الجولة من أحداث . الا انها انتهت الى النضال المشترك الذي أفاد فيه الغريمان الكثير .

وهكذا كان وصول العصفور الصغير الى المزرعة ، عاملا في تغيير حياة الكثيرين من أهلها . وهنا تنتهي القصة كما تنتهي سائر القصص الكوميدية المماثلة لها ، بالحب ينمو بين البطلة وبين بطل الطل ، وهو طبيب شاب يدعى اواسيميك فيتزوجان في النهاية ويعيشان حياة سعيدة .

وقد لايكون في هذه القصة شيء جديد يحمل طابع الامتياز من ناحية المادة أو الموضوع أو الاشخاص أو الاوضاع التي تعالجها . فظهور المرأة في أدب آسيا السوفياتية ، بدأ مع بداية عهد الثورة . وقد صور انتاج الكتاب الأوائل بإبراز نضال المرأة السوفياتية في هذه المناطق للمساواة مع الرجل ، بعد قرون طويلة من التخلف والجهل .

وليس ثمة من شك في أن شخصية سعيدة ، شخصية شاعرية طافحة بالحياة والشباب والأنوثة والطهر ، والمحبة العامة بالناس والصدق ، والحماسة الإيثارية لمصلحة المجموع . لكنها في الوقت نفسه تجمع في صورتها أنصع الاحساس بالكرامة التي تتمتع بها المتقدمات من نساء عصرنا ، والثقة بالنفس التي تترك طابعها العميق عند كل من يحيط بها من الناس ، ليأخذوا بيدها ويشدوا أزرها في الأوضاع التي يكون افتقارها الى الخبرة والتجربة عقبة في طريق عملها . ولعل مايميز البطلة هو هذا الاحساس العميق بالواجب نحو الناس والمجتمع ، والذي يكاد يشبه الشعلة التي تضيء لها طريقها في أحرج الأوقات .

والبطلة ولاشك سيدة اوزبكية نموذجية ، لكل ماعرف عن سيدات تلك البلاد من رقة ونعومة . ولكن بعض خصائصها ، هي من الميزات التي أصبحت تلازم المرأة

في المجتمع الاشتراكي الجديد . ولاريب في أن الصورة التي رسمها لها الكاتب تجعل منها بطلة من كريات البطلات في الأدب العالمي الحديث .

وتمكن مهار بما لديه من مواهب فذة ساحرة رائعة ، وميل فطري الى تصوير قصصه بالصورة الدرامائية ؛ من ولوج باب الرواية المسرحية ، التي مارس فيها قدرته الفائقة في خلق الصراعات بين الابطال والمتناقضات بين المواقف . وكانت مسرحيته الهزلية الأولى « سوساني الناعمة » ، سببا في الشهرة الدائوية التي حققها ، وفي فوزه بجائزة الدولة في الكتابة المسرحية ، وفي تمثيل ما يكتبه على أعظم مسارح الاتحاد السوفياتي كله .

والظاهرة البارزة في كتاباته ، هي تعلقه العظيم بالشعب الذي ينتمي اليه ، وحبه لأهل وادي فرغانه ، ووصفه لجمال هذا الوادي الرائع والساحر . ولا ريب انه خير من عرف العالم في قصصه ومسرحياته على هذه الانحاء النائية المجهولة من الاتحاد السوفياتي ، وعلى أهلها ؛ مصورا أفكارهم ومشاعرهم وآمالهم وخيبات أملهم .

وهو يصور كل ذلك بصدق وموضوعية ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة . . .

انه يستمد عبقريته من الشعب ليعيد له ، الصور التي يحس فيها بأنه قد أدى واجبه له .